التغيير الثقافي ودوره في التنمية البشرية.
نموذج مالك بن نبي

أ. سليمان ملوكي.
جامعة المسيلة.

من المسلم به أن التغيير ليس سنة ثابتة، ولكنه مطلب حضاري واجتماعي .كما يعد مطلبا قرآنيا:" إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"[1].وهنا يرد التغيير على أساس أنه فعل إيجابي بل أساسي لأي تقدم للأمام وللأفضل. ويؤكد على السنة الكونية في التغيير والتطور من أجل مصلحة المجتمع وحفاظا على حيويته وعطائه ومنزلته بين المجتمعات. فيكون بذلك قويا من داخله مسايرا لعصره محافظا على هويته وشخصيته.فهناك الكثير من النصوص والأحاديث تحث على هذا النهج، وهو ما نلمسه كذلك في التراث الإسلامي من حيث البحث والإبداع والمصداقية في القول والعمل.

وإذا كانت الأمة الإسلامية تشكو من التخلف الحضاري، فإن طوق نجاتها من هذا التخلف هو التجديد الحضاري...إن تقليد النماذج الحضارية الوافدة

[1] سورة الرعد، الآية 11.

ليس هو بالضرورة الحل الأمثل ... ولن تنهض الأمة إلا بالتجديد الذاتي، إنه ضروري لها إذا ما أرادت اللحاق ببقية الأمم[1].

إن التغيير الاجتماعي هو بالضرورة عملية تغيير ثقافي، إذ أن التغيير في البنى الاجتماعية والاقتصادية أو السياسية لابد أن يشمل تغيير في التصورات الثقافية للمجتمع. ومن هنا فإن عملية إعادة بناء الثقافة في المجتمع وصياغتها تربويا إنما هي تأكيد منهجي لعملية التغيير وتأسيس جوهري لإعادة تركيب البناء الاجتماعي وما يتطلبه من أدوات إجرائية، وفي ذلك يقول مالك بن نبي :"إن التغيير ليس له أي معنى ثوري إلا في إطار التقدم. وإلا يكون تقهقرا[2].

وأساس التغيير الثقافي عند مالك بن نبي هو الدين. فالحضارات بصفتها هدفا لأي تغيير اجتماعي تقوم على الدين بوصفه عاملا أساسيا في تركيبها، وإقامتها على خلاف المذاهب المادية التي تجعله عارضا في تاريخ الثقافة الإنسانية. لقد حدد مالك بن نبي العلاقة بين الدين وظاهر المجتمع ووضح أن هذه العلاقة تتحدد بفرضية وتفسيرات .فالفرضية هي (الفكرة الدينية) والتفسيرات هي الإلمام بظاهرة التغيير الاجتماعي والوصول إلى الحضارة في مجتمع من المجتمعات في مرحلة من مراحل التاريخ البشري. وقد استمد مالك أمثلته من استقراء الوقائع التاريخية الماضية للعالم الإسلامي وحضارته وللحضارات السابقة أيضا.

لقد وضح مالك بن نبي في نظريته عن التغيير الاجتماعي أساس هذا التغيير ومجالاته سواء على مستوى الفرد أو المجتمع.وأكد أن الوظيفة الأساسية للدين بمفهومه العام هي إحداث كافة التغييرات الاجتماعية التحويلية الهامة في

---

[1] محمد عمارة، الإسلام وضرورة التغيير، كتاب الأمة ،1977، ص 11.

[2] مالك بن نبي، من أجل التغيير، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1995، ص 106.

(الإنسان والزمن، والتراب) وما يتبعها من معطيات نفسية واجتماعية تحدث من خلالها التغييرات لتحقيق الغاية النهائية لحركة المجتمع حيث يتحقق في النهاية في شكل حضارة.

إن سقوط المجتمعات وتدهورها في مسيرة الدورة الحضارية كان نتيجة لغياب الوظيفة الاجتماعية للدين، إذ أن البناء الاجتماعي في أي مجتمع لا يقوى على البقاء بمقومات الفن والعلم والعقل فحسب بل بالروح أيضا. فالعلاقة الروحية بين المعبود والإنسان هي التي توجد العلاقة الاجتماعية. فالدين حين يخلق الشبكة الروحية التي تربط نفس المجتمع بالإيمان بالمعبود، فإنه في الوقت نفسه يخلق شبكة العلاقات الاجتماعية التي تقوم بدورها بتهيئة المجتمع للقيام بدوره التاريخي ويحقق نشاط أفراده من خلال العمل المشترك، وبهذا نجد أن الدين يربط أهداف السماء بضرورات الأرض. فالجانب الغيبي للدين هو الذي يوفر (المبررات) ويوجد الإرادة الجماعية. ولا بد من تلازم القيم الأخلاقية بالناحية الاجتماعية في إطار هذا النشاط المشترك للأفراد، ذلك أن أي خلل في علاقة القيم الأخلاقية بالجانب الاجتماعي يؤدي إلى انهيار المجتمع وتدهوره.

ولمزيد من التوضيح لدور الدين في إحداث التغيير الاجتماعي يؤكد مالك بن نبي، على أن (الفكرة الدينية) هي المحرك الأساس للمجتمع، وآلية إحداثها للتغيير تتم من خلال تكوين وإنشاء العلاقات الاجتماعية التي تربط بين (عالم الأشخاص، وعالم الأفكار، وعالم الأشياء). فالفكرة الدينية هنا هي المركب Catalyseur أو العامل الرئيسي لتفاعل هذه العناصر لتصبح وحدة واحدة تقوم بإحداث التغيير، أي أن الفكرة الدينية توجد الرابطة التي تجعل عالم الأشخاص يتحرك وفق المحددات التي رسمها عالم الأفكار بوسائل من عالم الأشياء. والعالم الأول هم الأفراد المادة الأولية للنشاط الاجتماعي، ولكن

ليسوا هم الأفراد العاديين، ولكنهم الأشخاص المقتنعون بيقين العقيدة والصالحون للقيام بهذا الدور التغييري والمستعدون له بعد أن تم تعديل معادلتهم الاجتماعية ليكونوا في مستوى من الفعالية الاجتماعية يؤهلهم للتغيير[1].

وهكذا نجد أن إحداث التغيير الاجتماعي يتطلب توفير شروط معينة تمس الإنسان والتراب والزمن والمجتمع وثقافة هذا المجتمع، وهي نطاق (التغيير الاجتماعي) الذي هو في موقع إمكانية الحدوث طالما أن هناك إمكانية إعادة تطبيق المبدأ القرآني في النفس الإنسانية في أي مرحلة نرغب أن يحدث فيها هذا التغيير الإرادي المتعلق بالذات.

ويستخدم مالك بن نبي مفاهيم التحليل النفسي والتحليل التاريخي للظواهر الاجتماعية بصفتها أدوات معرفية يستعين بها من أجل البحث عن الانتظام الذي يحكم الظواهر الاجتماعية والتاريخية. فآراءه بهذا المعنى ترقى إلى مستوى النظرية في علم الاجتماع وخصوصا ما عرف منها بما يسمى بالاتجاهات الاجتماعية العامة.ولا تختلف هذه الاتجاهات العامة إذن عن سائر النظريات الدورية للتغيير الاجتماعي من حيث تصورها للظاهرة الاجتماعية التي يبدأ فيها التغيير من "الإنسان" ذاته باعتباره محور التغيير الثقافي والاجتماعي لدى الإنسان المسلم. إن واجبنا اليوم يكمن في تحويله اليوم من إنسان سلبي يجتر أفكار عصور الانحطاط إلى إنسان جديد فعال أو إيجابي قوي روحيا وأخلاقيا[2].

---

[1] مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، بيروت، 1981 ص09.

[2] أحمد درغام، محمود محفوظ، دراسات في الفلسفة السياسية، دار المعارف للطباعة والنشر، دمشق،1984 ،ص52.

إن ظاهرة تغيير الإنسان وتحديد مساراته في التاريخ ، تتضح لدى مالك في عدد من معالمها سواء فيما يخص إطارها المفاهيمي والمصطلحات الجديدة التي أضافها لعلم الاجتماع مثل الفعالية الاجتماعية البناءة، التكديس، القابلية للاستعمار، الأفكار القاتلة، والأفكار الميتة وجميعها مفاهيم ذات دلالات وظيفية اجتماعية.وما يخص محورية الدين في بنائها ودخوله في الجدلية النفسية الاجتماعية بين الفرد والمجتمع في الدورة الحضارية وأن الدين هو منشئ الحضارة.

وفي نفس السياق دائما يمكننا أن ندرج أهم نظريات التطور الاجتماعي أو التغيير الاجتماعي إذ حاول مفكرو القرن التاسع عشر الذين جاءوا بعد" أغست كونت" اكتشاف قوانين تطور المجتمعات وأشهر محاولة في ذلك تلك التي قام بها" هربرت سبنسر" في كتابه:"مبادئ علم الاجتماع"حيث بين لنا فيه القانون العام للتطور الخاص بالمجتمعات وتقدم مشروع تغيير متكامل للعودة بالمجتمعات الإنسانية إذ يرى بأن كل جسم يمر من طور بدائي يتسم بالتجانس والبساطة في بنيته لينتقل بعده إلي طور أعلى تعرف فيه هده البنية تباينا أكثر فيعتمد فيها الإنسان على الصيد إلي أن تتطور إلي مستوى من التعقيد فتظهر السلطة المتمثلة في رب الأسرة، وقائد الجيش، والقائد الديني ثم إلى مستوى ثالث ألا وهو مستوى الحضارة[1].

ونعود مرة أخرى للحديث عن التغيير الثقافي وعلاقته بالمجتمع ودور الإنسان فيه، فلا يمكنه أن يغير شيئا في الخارج إن لم يغير شيئا في نفسه. وحينما نقول هذه الكلمة نقولها ليس تبركا بآية ولكن نقولها ونعلم مقدارها من الصحة العلمية. انه لا يستطيع المسلم أو غير المسلم أن يغير ما حوله إن لم

[1] جان بياركوت، بيار موني، من أجل علم اجتماع سياسي، ترجمة محمد هناد، ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ،1984، ص94-95.

يغير ما بنفسه أولا فهذه حقيقة علمية يجب أن نتصورها كقانون إنساني في أي علمية التغييرية. ولكي يتحقق التغيير إذن في محيطنا يجب أن يتحقق أولا في أنفسنا. وهذا هو "دور المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين" وإلا فإنه لن يستطيع بناء المجتمع الجديد[1].

ويبدو لي أن التاريخ الثقافي العربي في القرن العشرين تاريخ تغيير ثقافي بالمعنى الأنتربولوجي للثقافة الذي يشمل مجمل الجوانب المادية،المعنوية والاجتماعية. ويعكس هذا التاريخ مرحلة استقطاب أكثر مما يعكس توافقات اجتماع مستقر. ويمكن بلغة العلوم الاجتماعية تنميط أنواع التغيير وفق العلاقة مع محور الخطاب بأربعة أنواع من الخطاب هي: الخطاب الليبرالي والخطاب القومي والخطاب الماركسي واليساري الجديد، والخطاب الإسلامي.

ولقد تجاوزت هذه الأنواع أو على الأقل عناصر منها في كل مراحل التغيير الثقافي الكبيرة وشكلت بموجبها ما يمكن تسميته بلغة "ليوتار" بالسرديات الكبرى للفكر العربي الحديث. غير أن ما تميزت به حدة التغيير الثقافي هو أن هذه الأنواع قد تبادلت فيما بينها أقصى أشكال الاستقطاب والصراع حول امتلاك الحقل الأيديولوجي-السياسي الاجتماعي بوصفها خطابات تغيير بالمعنى الأنتربولوجي، أي خطابات تغيير اجتماعي شامل، ويقابل ديناميكية التنابذ آلية التجاذب أحيانا، وهو ما يشير إلى ديناميكية الصراع حول الهيمنة بشكل يحاول فيه كل خطاب أن يسحب البساط من تحت أقدام الخطاب الأخر ويدمجه في جهاز مفاهيمه.

---

[1] مالك بن نبي، دور المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين، ط 2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1977 ص52.

وعلى هذا النحو يتضح دور الإسلام في عملية التغيير الثقافي والاجتماعي –بل وحتى السياسي- يتمثل في مقاومة الاستعمار ومشاريعه المختلفة.كما أن منطلقه في التغيير يقتضي نقل القيم الاجتماعية والأخلاقية الذاتية من حالتها الجامدة المنفصلة عن الحركة إلى حالة نفسية زمنية، فكل القيم النفسية ليست إلا ترجمة للعلاقة العضوية بين الفكرة الدينية والفرد والحضارة والتي ما هي إلا نتائج لحركة المجتمع المتوازن معنويا وماديا، يهدف هذا التوازن إلى تحقيق ممارسة الدور لهذا المجتمع في تاريخ البشرية[1].

الإنسان محور التغيير.

لقد قدم الدين الإسلامي الحنيف للإنسانية منهجا واضحا عن الله والكون والإنسان والحياة فبين المنهج الذي اختطه لهداية الإنسان ليصل إلى خالقه بعد فهمه لدوره في الحياة ولرسالته في الوجود. ومن الأهداف الأساسية للإسلام ولكل دين سماوي أن يوصل الإنسان بخالقه وذلك عن طريق توجيه نظره لما حوله ﴿وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسهم أفلا تبصرون﴾[2]، ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا[3]﴾.

والهدف من وجود الإنسان في المنظور القرآني أن يعبد ربه، والوسيلة في ذلك هي النظر في الكون وآلة ذلك العقل والحواس. ومن هنا يمكن فهم سبب تكرار بعض العبارات في القرآن مثل" أفلا تعقلون"و "ولقوم يتفكرون". والتفكير هنا مرتبط بالعبادة، لذا فما أن يفقد الإنسان عقله حتى يسقط عنه التكليف

---

[1] أسعد السحمراني ،مالك بن نبي مفكرا إسلاميا، ط 2، دار النفائس،1986، ص،136.

[2] سورة الذاريات ،الآية 21.

[3] سورة الإسراء، الآية 70.

والمسؤولية. فالتفكر يبدأ عادة بالمخلوق لينتهي بالخالق، لأن من طبيعة الإنسان البحث عن العلة والسبب.

لقد أفاض القرآن بالحديث عن الكون وحركته، ليعمل الإنسان فكره في ذلك، والإنسان قبل هذا وبعده مخلوق ترابي ﴿خلقكم من تراب﴾ [1].وعناصر تركيب الجسم الإنساني معروفة اليوم ومتى ما تحللت هذه العناصر عادت للتربة، وهذا من حسن حظ الإنسان، فلو تحجر الأموات منذ آدم حتى اليوم لغطوا وجه الأرض. فالإسلام يحقق النموذجي الإنساني الكامل من حيث نمو جميع عناصره، من جسم وعقل وروح نموا كاملا متوازنا.

وإذا أردنا تنظيم هذه العناصر عموديا حسب أهميتها، فسيكون في القاعدة الجسم وفي الأعلى الروح وفي الوسط العقل. فالجسم يخدم العقل والعقل يخدم الروح، والروح-بحكم طبيعتها- هي التي تتصل بالله تعالى بينما يؤمن العقل الصلة بعالم الأشياء. إن العقل هو ملكة الحكم على الأشياء. وحينما يضبط مالك بن نبي مفهوم الإنسان، فإنه لا يخرج في ذلك عن الإطار السماوي (الديني) الذي صاغه القرآن الكريم باعتباره خليفة الله في الأرض خلقه لأجل إقامة الدين والحضارة. وعلى هذا فإن كل حضارة ينتجها الإنسان تمر بثلاث مراحل متعاقبة هي:

أ/المرحلة الروحية: وتكون حية متدفقة بفعل قوة الإيمان.

ب/المرحلة العقلية: وفيها تزدهر الحضارة بفعل النشاط العقلي الذكي والفعال.

ج/المرحلة الغرائزية: وفيها تكثر الشهوات وتكدس الأشياء فتأذن بسقوط الحضارة.

---

[1] سورة الروم الآية 20.

غير أن النظرة الغربية للإنسان تختلف عن النظرة التي يقدمها القرآن الكريم للإنسان .فالفيلسوف البريطاني "راسل" يقدم لنا ثلاثة عناصر تبنى عليها شخصية الإنسان وهي: الغريزة، الروح والعقل وهو قريب من وجهة نظر مالك بن نبي إلى حد كبير، غير أنه يقدم لنا ملاحظة ذكية عن الحضارة الغربية فيقول: إن التوازن فيها مفقود والحقيقة أن الكثير من الحضارات افتقدت التوازن وحتى الديانات وما ندري فربما جاء فقدان هذا التوازن لاحقا بسبب التحريف[1].

وفلسفة التغيير عند بن نبي[2] هي فلسفة شاملة ونسق كامل متكامل ورؤية متعددة الجوانب للإنسان وذلك من حيث علاقته بخالقه وعلاقته بالآخرين، أو في عملية صنعه للتاريخ أو في بناءه للحضارة، أو في مقاومته للاستعمار أو القابلية للاستعمار. كما يمكن القول أن هذه المظاهر التي تتمحور حولها أفكار التغيير لا تعبر عن نظرية فقط بل هي تشمل العمل والنشاط والتغيير الفعال. إن محور التغيير هو إذن النفس البشرية وذلك بنفض غبار المرحلة الغريزية الموروثة عن مرحلة ما بد الموحدين كما تدعو فلسفة التغيير إلى الثورة على العقم الاجتماعي وعلى أحلام اليقظة وإن يقترن منطق العمل والحركة في المجتمع الإسلامي بمنطق الفكرة، فيصبح الإنسان الجديد يفكر ليعمل، ويقول كلاما منطقيا من شأنه أن يتحول إلى قيمة عمل ونشاط[3].

و تهدف نظرية مالك بن نبي في التغيير إلي إحداث التوازن بين المادة والروح وبين العلم والضمير في المجتمع الإسلامي الذي تنقصه القوة المادية

---

[1] برتراند راسل، السلطة والفرد، ترجمة رمسيس عوض ،كلية الآداب ، جامعة القاهرة، 1979، ص66.

[2] مالك بن نبي، من أجل التغيير، مصدر سابق، ص110.

[3] عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، منشورات عالم الأفكار، الجزائر، 2005، ص 47.

ليدخل معترك الحضارة من جديد وينقذ البشر من كارثة أكيدة قد تحل بها من جراء اعتناقها للفلسفة المادية البشعة التي تقود خطى الحضارة الغربية ونزعتها النسبية المفرطة في الكم.

وفي هذا المجال يرى عبد اللطيف عبادة أن مالك بن نبي سعى إلى بلورة نظرية معرفية تعتمد في طريقتها إلى البحث عن الحقيقة على كل وسائل المعرفة من خلال " الحواس والعقل والقلب"، ويكملها النقل بما يحتوي عليه من توجيهات ربانية للفكر الإنساني. وفي السياق ذاته تعمل هذه الأفكار على إثراء مبادئ الإنسانية، وهي تقوم حسب بن نبي على أسس غيبية أرساها القرآن الكريم وفي مقدمتها التكريم الإلهي الذي يحظى به ابن أدم[1].

دور الثقافة في تنمية الشخصية.

من الحالات التي يظهر فيها تأثير الثقافة في الشخصية هو التغيير الثقافي الذي يحدث بكيفية طبيعية ومستمرة بدرجات متفاوتة من مجتمع إلى آخر بحسب درجة تعقد الظواهر الثقافية في المجتمع وبساطتها، إلا أن الذي يهمنا في الموضوع بغض النظر عن سرعة هذا التغير أو بطئه هو ما يصيب هذا التغيير من تأثير واضح على الشخصية الأساسية في المجتمع وبصفة أوضح على شخصيات المركز وخاصة في المجتمعات المتمدنة ذات الثقافة المعقدة التي تتصف بأكبر قدر من السرعة في التغيير وأقل قدر من التجانس على خلاف المجتمعات الصغيرة التي تتصف ثقافتها بأقل قدر من التعقيد . وفي هذا الصدد ترى الأنثروبولوجية الأمريكية مارغريت ميد (M. Mead) في هذا الخصوص أن

[1] المرجع نفسه ، ص 75.

من أهم عوامل تغيير الشخصية العامة للمجتمع هو التغيير الثقافي[1] .كما تتضح تغيرات الشخصية عبر الأجيال حيث أن اختلاف سمات شخصيات الآباء عن شخصيات الأبناء من الظواهر النفسية التي تميز بوضوح عملية التغير الثقافي في كل جيل من الأجيال يساهم بقدر معين في عملية هذا التغيير الثقافي الذي يصطدم مع الشخصية العامة للمجتمع غالبا ما يكون مآله الفشل .

إن القول بأن تشكيل شخصية الأفراد في مجتمع معين هي منتوج لنوع الأنماط الثقافية السائدة في المجتمع، والتي يتفاعل معها الفرد على امتداد مراحل حياته.إن هذا لا يعني مطلقا أن هذا الفرد آلة صماء تتأثر ولا تؤثر، وتأخذ ولا تعطي، وتتغير ولا تغير وإنما هي أمور نسبية، وتظل الكلمة النهائية للإنسان على الخلق والإبداع، حيث إنه بحكم هذا التميز الواضح من جهة وبحكم الفروق الفردية في المواهب والقدرات الثابتة علميا بين الأفراد في المجتمع الواحد من جهة أخرى،[2] على الرغم من خضوع هؤلاء الأفراد لنظام تربوي واحد وأنماط ثقافية موحدة في عمومها وبصفة أخص في المجتمعات الصغيرة قد بات من الضروري أن يوجد دور مؤثر وفعال في الثقافة وفي مظاهرها المختلفة.

دور الأفكار في تنمية الإنسان.

يستعمل مالك بن نبي مصطلح الأفكار بمعنى الحقائق ولا سيما الحقائق الكبرى ذات الطابع الكوني الشامل، وهذا حينما يتحدث عن طريقتين مختلفتين تميزان الحضارة الغربية والشرق الإسلامي في ملء الفراغ الكوني ، فإما أن ينظر

---

[1] نقلا عن إبراهيم وجيه محمود ،الفروق الفردية، منشورات الجامعة الليبية (دون تاريخ)، ص21.

[2] المرجع نفسه، ص 22.

الإنسان حول قدميه وإما أن يرفع بصره نحو السماء. والطريقة الأولى تؤدي إلى شغل فراغ الإنسان بأشياء، أي أن نظريته المتسلطة تريد أن تستحوذ على أشياء بينما الثانية تؤدي إلى شغل هذا الفراغ بالأفكار أي أن نظرته المستفسرة ستكون في بحث دائب عن الحقيقة .

والمثل الذي يضربه على الطريقة الأولى هو طريقة "روبنسون كروزو" في ملء فراغه بالعمل لصناعة أشياء والصيد وتقسيم وقته في انشغالات مادية، على حين مثله على الطريقة الثانية الإسلامي "حي بن يقظان" الذي يقضي وقته في البحث عن الحقيقة المطلقة .وهو يصادر على أن الطريقة الأولى تنسجم مع الطبع الأوربي الآري الذي يهتم بتركيب الأشياء والأشكال والتركيب التقني والجمالي ويفتقد العنصر الغيبي على حين تنسجم الطريقة الثانية مع العنصر السامي الذي يطغى لديه العنصر الديني ولا ينشغل بالمشاغل الأرضية هو لا يؤلف الأشياء بل يؤلف بين فكرتين هما: فكرة الحق وفكرة الخير أي الأفكار كخبرة حضارية جماعية[1].

ويعني مصطلح الأفكار عند مالك بن نبي أيضا الخبرة المتموضعة على شكل بنية جماعية عقلية نفسية تجعل المجتمع يبني الهيكل المادي للحضارة ويعيد بناءه بسرعة حتى لو تعرضت للتدمير بفعل كارثة كالحرب مثلا. ومثاله المفضل هو المجتمعان: الياباني والألماني اللذان كانا بعد الحرب العالمية في حالة عوز هائل في الأشياء ولكنهما كانا غنيين بالأفكار، مما مكنهما من إعادة بناء الهيكل المادي لهما بسرعة قياسية، بخلاف المجتمع الاندونيسي الذي كان غنيا بالموارد المادية المطلوبة للبناء ولكن الخطة التي وضعها "شاخت" لبناء ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى ونجحت فيها نجاحا باهرا لم تنجح في

[1] مالك بن نبي، مشكلة الأفكار، دار الفكر، بيروت، 2005، ص 142 .

اندونيسيا فيها حينما استدعت "شاخت" بالذات للإشراف على تطبيق خطته ذاتها، فلم تنجح بفعل العوز في الأفكار في المجتمع الأندونوسي.

وإذا ما جئنا للبحث عن أهمية الأفكار في حياة مجتمع معين فإنها تتجلى في صورتين هما: إما أن تؤثر بوصفها عوامل نهوض بالحياة الاجتماعية، وإما أن تؤثر على عكس ذلك بوصفها عوامل ممرضة تجعل النمو الاجتماعي صعبا أو مستحيلا .وهناك فضلا عن ذلك جانب آخر لأهمية الأفكار في العالم الحديث ففي القرن التاسع عشر كانت العلاقات بين الأمم والشعوب علاقات قوة، وكان مركز الأمة يقدر بعدد مصانعها ومدافعها وأساطيلها البحرية ورصيدها من الذهب.ولكن القرن العشرين قد سجل في هذا الصدد تطورا معلوما هو أنه قد أعلى من الفكرة باعتبارها قيمة قومية ودولية . هذا التطور لم تشعر به كثيرا البلدان المتخلفة لأن عقدة تخلفها ذاتها قد نصبت في طريقها ضربا من الغرام السقيم بمقاييس القوة أي بالمقاييس القائمة على الأشياء .

وإذا ما أردنا تحديد دور الأفكار في ظاهرة التثقيف ، ينبغي أن نحدد في أي الظروف التاريخية والاجتماعية تؤدي دورها ؟

إن النشاط الاجتماعي والثقافي لفكرة ما مرتبط في الواقع ببعض الشروط النفسية والاجتماعية التي بدورها تفقد الفكرة فاعليتها. ففكرة (التقدم) مثلا قامت بدور رئيسي في تاريخ القرن التاسع عشر لأن إشعاعها في ثقافة أوروبا كان مؤيدا بفكرتين هما : النظرية الوضعية لـ (أوجست كونت) ، والنظرية التطورية ل (داروين) .وليس معنى هذا أن التقدم في ذاته بوصفه واقعا قد انعدم في أوروبا ، بل معناه أن إشعاعه بوصفه فكرة قوة فقد تأثيره في الثقافة الأوربية ،

ففقد من أجل هذا فاعليته الاجتماعية . فإذن فاعلية الفكرة رهن بشروط نفسية واجتماعية تتنوع بتنوع الزمان والمكان[1].

وتتجلى المقدرة الخلاّقة للفكرة في التفاصيل ذات الأهمية البسيطة .كما يمكننا أن نلاحظه في هذه الأيام في قربات الباعة الجوالين في شوارع القاهرة، حيث يبيعون (الفوانيس) الملونة لتسلية الأطفال في ليالي رمضان .فمن الواضح أن (الفوانيس) –وهي شيء- قد أوجدها معنى رمضان أعني باعتباره شعائر دينية وفرضا إسلاميا يحث المسلمين على الجد والنشاط ويبعث روح الاحتفال أيضا. إنه لامجال إذن لأن ننكر الشيء في خلق الثقافة ، ولكن لا يمكن بحال أن نخضع له الفكرة ، بل ينبغي أن نعترف لها بأسبقية معينة في هذا المجال ، وبقدر ما يصيب علينا ملاحظة هذه الأسبقية في المرحلة الديناميكية ، في نمو ثقافة معينة وفي حركتها ، فإنها تكون ظاهرة في المرحلة الأستاتيكية أي في بداية تحريك الذراع والعجلة عندما تبدأ عملية التثقيف .

وليست الفكرة هي التي تفقد وحدها معناها الثقافي وقدرتها على إبداع الأشياء،"فقد تكون فكرة ما صالحة وليست صحيحة وقد تكون فكرة صالحة لكنها فقدت صلاحيتها لأي سبب.ألسنا نشعر أن ديننا هو أوضح من حيث الصحة من شمس النهار...لكن بسبب تقاعسنا ونومنا في النهار فقد بعض صلاحيته."[2].

إن الشيء نفسه يفقد أيضا مقدرته على إنتاج الأفكار.فخذ مثلا على ذلك تفاحة (نيوتن) الشهيرة ، وتخيل ما كان يمكن أن تؤديه لو أنها بدلا من أن تقع

---

[1] مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، ترجمة عمر مسقاوي، الطبعة الثالثة، دار الفكر الجزائر،1987، ص 94.

[2] مالك بن نبي، دور المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين، مصدر سابق، ص55.

على رأس ذلك الرياضي الكبير وقعت على رأس جده الذي عاصر عهد غيوم الفاتح ! وبالنتيجة فإنه يمكن القول أن ما يحدث بين ثلاثية الأشياء والأفكار والأشخاص هو ذلك الاختلال في التوازن بين هذه المكونات الثلاثة وما يليها من فساد في التصورات بحيث تصبح تدور حركة المجتمع من خلالها في فلك طغيان الشيء أو الشخص أو الصنم .

وأما من حيث طغيان الأشخاص، فإن مالك بن نبي يوضح لنا مشكلة كبرى نواجهها بالفعل ألا وهي أننا غير قادرين على الفصل بين المبادئ والأشخاص الذين يمثلونها ويجسدونها أو بمصطلحات بن نبي عدم القدرة على الفصل بين الفكرة المجردة والفكرة المجسدة .وفي ذلك يقول:"عندما يتجسد المثل الأعلى في شخص يظهر خطران أولهما أن جميع أخطاء هذا الشخص تحسب على عاتق المجتمع الذي جسم فيه مثله الأعلى ،وثانيهما أن جميع انحرافاته يقع وزرها أيضا على المجتمع وتظهر إما في صورة تنحية للمثل الأعلى الذي هوى ، وإما بالإرادة عندما يعتقد أن تعويض الحرمان يكون باعتناق مثل أعلى جديد دون أن يتفطن أحد في كل هذه الحالات إلى أنه حدث استبدال خفي لمشكلة الأفكار بمشكلة الأشخاص. ولذلك نجد القرآن الكريم يحذر المسلمين من هذا الموقف الخاطئ عندما قال :" وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم "[1].

إن المثل الأعلى باعتباره أساسا من أسس التربية يجعل الثقافة الإطار المرجعي العام للمنتوج القيمي للمجتمع .فالحضارة متى اشتدت قوتها

[1] سورة آل عمران الآية رقم 144.

وإشعاعها كانت تسري في مختلف مظاهرها متى كانت التربية فعالة وصانعة لأدوات الحضارة كانت الروح المجددة للفعل الحضاري"[1].

وأما من حيث طغيان الأفكار فإن الأمر عند بعض المثقفين قد يصل إلى الاعتزال عن المجتمع وانقطاع علاقة أفكارهم بهذا المجتمع كما هي الحالة في بعض المثقفين الأوربيين الذين ساروا في ركاب الفلسفة الوجودية، كما نجد حالات مشابهة في بعض بلدان العالم الثالث حيث يلغي المثقف فيها الواقع معوضا إياه بالكتب أو المؤلفات كما هي الحالة عن الحركات السياسية التي عادت المجتمع واعتقدت أنها تمثل الحقيقة المطلقة التي تعطيها الحق في تفكيك المجتمع أو في إعادة بنائه بالعنف . وخلافا لما هو شائع ،لم يبدأ هذا المرض عند الحركات المتدينة بل بدأ عند الحركات العلمانية أو اللادينية كنظام "بول بوت" في كمبوديا أو نظام "ستالين" في روسيا. غير أن بعض الحركات الصغيرة المحسوبة على الإسلام فإنها وقعت في هذا المطب حينما اتبعت نهجا يكفر المجتمع بكامله وعدت نفسها هي الوحيدة المالكة للحقيقة أو هي وحدها على صواب ويقين .وبانحطاط الثقافة والفكر تحتل الأشياء قمة سلم القيم، فتتحول الأحكام النوعية خلسة إلى أحكام كمية فتظهر النزعة التراكمية أو تكديس الأشياء ،فيصبح عدد هذه الأشياء هو المعيار للنجاح وليس استخدامها الفعلي.

وملاحظة بن نبي الوجيهة عن الانزلاق من الأحكام النوعية إلى الأحكام الكمية نجدها بالفعل في بعض البلاد التي قادها شعورها بالعجز الفكري ، وعدم قدرتها على الخوض في غمار المعالجة الناجحة للفكر المعاصر وعدم

[1] محمد بغداد، التربية والحضارة عند مالك بن نبي، سلسلة عالم الأفكار، 2006، ص 7.

القدرة على اكتشاف قيمة أصحاب الأفكار المبدعة، فسادت المعايير الكمية ولم يوضع الشخص في الموضع الصحيح الذي يوضع فيها أصحاب الأفكار[1].

آلية توجيه الأفكار.

يرتبط توجيه الأفكار بمشكلة الثقافة من الوجهة التربوية في جوهرها لذلك نحدد المعنى العام لفكرة التوجيه فهو بصفة عامة قوة في الأساس وتوافق في السير ووحدة في الهدف . فكم من طاقات وقوى لم تستخدم لأننا لا نعرف كيف نقيسها ؛ وكم من طاقات وقوى ضاعت فلم تحقق هدفها حين زحمتها قوى أخرى صادرة عن المصدر نفسه متجهة إلى الهدف نفسه .فالتوجيه هو تجنب الإسراف في الجهد وفي الوقت، فهناك ملايين السواعد العاملة والعقول المفكرة في البلاد الإسلامية صالحة لأن تستخدم في كل وقت، والمهم هو أن ندير هذا الجهاز الهائل المكون من ملايين السواعد والعقول في أحسن ظروفه الزمنية والإنتاجية. إن التوجيه حينما يتحرك يحدد مجرى التاريخ نحو الهدف المنشود، وفي هذا تكمن أساسا فكرة توجيه الإنسان الذي تحركه دوافع دينية. وبلغة الإجماع الإنسان الذي يكتسب من فكرته الدينية معنى الجماعة ومعنى الكفاح.

وليس يكفي مطلقا أن ننتج أفكارا، بل يجب أن نوجهها طبقا لمهمتها الاجتماعية المتحدة التي نريد تحقيقها، وهنا يطالعنا موقفان متعارضان في الظاهر ، ولكنهما مع ذلك نتيجة لوجهة النظر الاجتماعية ؛ ففي البلاد العربية غالبا ما نصادف هذين الموقفين متجسدين في شخصيتين مختلفتين .

---

[1] نصر عارف، "هندسة البناء الحضاري عند مالك بن نبي"، مجلة الفكر الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، أفريل، 1994، ص54.

هناك من يدعي أداء العمل السياسي مثلا دون أن يرجع في عمله إلى قاعدة أو فكرة معينة كأن من الممكن أن يكون النشاط فعالا وفاعله أعمى .إن هذا (الرجل العملي) غالبا ما يكون سليم القصد ، وحينئذ لا يفسر موقفه إلا بجهله في المشكلات الإنسانية غير الموجهة توجيها اجتماعيا صحيحا[1].

وطبيعي أن يفقد النشء فاعليته إذا ما أراد إظهاره عمدا للمقاييس والقواعد وفي كلمة واحدة إذا ما أراد إظهاره للأفكار. فإذا به يضل في متاهة من الإبهام والغموض والشك، دون أن يدرك أنه قد زاغ عن سواء السبيل. لكن هناك شخصية أخرى تمثل نموذجا آخر من انعدام الفاعلية، فهي بصفة عامة رجل مخلص وهبته الطبيعة فكرا خصيبا، لكن لديه ذوقا خالطه الترف العقلي فهو طروب لا يتخيل الفكرة منوالا تنسج عليه ضروب النشاط الاجتماعي أشبه بمن يجمع التحف والأشياء الثمينة .

ولو أنني وصفت هذا الفكر بصورة أستعيرها لقلت: إنه ليس مصنعا تتحول فيه الأفكار إلى أشياء، بل هو مخزن تتكدس فيه الأفكار بعضها فوق بعض. إن الأمر يقتضي أن نتساءل: كيف ينبغي أن ندرك قيمة الأفكار والثقافة في صورة برنامج تربوي يصلح لتغير المجتمع والإنسان[2].

الخلاصة

إن النموذج المالك بن نبويي التغييري يعتمد على الإنسان باعتباره موضوعا أو محورا للعملية التغيرية. ويقوم النموذج المالك بن نبوي على البعد الإنساني في عملية التنمية في عمومها سواء على المستوى الأخلاقي أو السياسي أو

---

[1] مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 2006، ص99.

[2] المصدر نفسه، ص100.

الاجتماعي. كما يتجاوز النظرة المادية لمسألة التنمية باعتباره يقوم على تحقيق الانسجام المعنوي والروحي الذي يتحكم في الجوانب المادية والاجتماعية للإنسان. إن مالك بن نبي يطرح نموذجا كامل المعالم أي انه يقوم على مركزية الإنسان في عملية التنمية القائمة على غرس الأفكار السليمة وحسن التربية كآليتين لتحقيق التنمية البشرية في مفهومها العام ألا وهو تحقيق الحضارة.

يتصرف في الأرض ليس بيده بل بيد الله